

شاعر السمّون زهير ابن أبي سلمى للدكتور عبد القادر الرباعي

(جامعة اليرموك / الأردن)

ما زال الشعر الجاهلي يشغل الدارسين والمهتمين بالفن عموماً ،
وذلك لما له من تميز في الاشراق والبساطة مع العمق والشمول . وهو
ككل فن بدائي ممتاز يشكل ، بجداره ، الاصول الأولى للفن الشعري العربي
الأصيل كله .

اما أعلامه فيُنظر إليهم على انهم الفلاسفة الأول الذين ابتكروا
المعاني وشقّقوها بقدرتهم الذهنية ، وباخلاصهم في الوصول الى حلول
مقنعة لمسألة الانسان والوجود .

وزهير واحد من اعلام الشعر الجاهلي ، بل هو واحد من المبرزين
فيه . فهو لهذا يستحق اهتماماً مستمراً ودراسة متجددة ، لان مثل هذه
الدراسة وذلك الاهتمام قادران على اكتشاف عناصر جديدة تضاف الى تراث
هذا الشاعر الخالد .

سأتعرض لزهير في الصفحات التالية من زاويتين : ادرس في
اولها زهيراً الانسان : اصوله وفروعه ، ثم سماته الخلقية والسلوكية ،
على اساس ان لهذا دوراً كبيراً في تشكيل فكره والاهتمامات الشعرية عنده ؛
كما ادرس في ثانيتهما زهيراً الشاعر ، بهدف الوقوف على قدراته الفنية
التي جعلته شاعراً متميزاً في خصائصه ومذهبه .

وقد ذهب بعض الباحثين واهماً الى انه منهم (٧) . وكان بعض اهل العلم من غطفان يدّعون انه منهم، ويشككون في صحة ادّعاء كعب السابق في انه من مزينة (٨) .

أما انضمام ابي سلمى ، والد زهير ، الى بني غطفان وبقاؤه فيهم، فسببه — كما تقول اكثر الروايات (٩) — ان ابا سلمى هذا كان قد خرج مع خاله اسعد ابن الغدير، وابن خاله كعب، وبعض من بني مرة للاغارة على طيء ، فأصابوا نعمة كثيرا وأموالا ؛ فرجعوا حتى انتهوا الى ارضهم ، ارض بني مرة ، فطلب ابو سلمى من خاله وابنه ان يفردا له سهما من الغنيمة ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فكفّ عنهما حتى اذا كان الليل أكره امه على الارتحال معه من ارضهم، وقد قال في ذلك :

لتعدون إِبِلٌ مُخَيَّسَةٌ من عند سعدٍ وابنه كعبٍ

الأكْلَيْنِ صرِيحَ قَوْمِهِمَا أَكَلَ الْحَبَارَى بُرْعَمَ الرُّطْبِ (١٠)

واتجه الى قبيلته مزينة فلبث فيهم حينا ، ثم أقبل بمزينة مغيرا على أخواله من بني غطفان . ولما ابتعد المزنيون عن ديارهم واشرفوا على ديار غطفان، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحيدا، فقال معتبرا :

٧ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ط . دار المعارف ١٩٦٧) ٨٦/١ وما بعدها .

٨ — طبقات فحول الشعراء / ٩٢ . وورد على لسان نعلب في شرح ديوان زهير ص ٨٦ ان بني عبد الله بن غطفان يقولون، هو منا إلا انه يكذب ادعائهم ويمدّه باطلا .

٩ — الاغانى ٢٩١/١٠

١٠ — الحبارى : طائر يقع على الذكر والانثى، ويضرب به المثل في البلاء والحق فيقال (ابلمن الحبارى)

من يشتري فرساً لخير غزوها وأبث عشيرة ربها أن تُسهلا

ثم أقبل حين رأى ذلك من مزينة حتى دخل في أخواله من بنسي
مرة، وفي بني عبدالله بن غطفان منهم ، وقد كان هؤلاء يسكنون (الحاجر)
في نجد (١١) .

فعلى هذا يكون الغطفانيون أخوالا لوالد زهير، وليسوا أصولا له كما
زعم بعض الباحثين. أما أمّ زهير فكل ما نعرف عنها أنها من غطفان ، من
بني مرة بن سعد بن ذبيان (١٢) ، وأنها أخت أو ابنة أخ للشاعر الجاهلي
الكبير بشامة بن الغدير . وكان زهير يعجب بشعره ويدعوه بالخال (١٣) .

وذكر حماد أن بشامة هذا كان أشعر غطفان في زمانه ، وكان رجلا
مقعدا حازم الرأي كثير المال . ولم يكن له ولد ؛ جمع ثروته من حزم
رأيه، إذ كانت غطفان إذا أرادوا الغزو أتوه فأثروه واستشاروه وصدروا عن
رأيه ، فإذا انصرفوا قسموا له مثلها يقسمون لأفضلهم ؛ فلما حضره الموت
جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين أخوته ، فأتاه زهير فقال : يا أخالاه ، لو
قسمت لي من مالك ؟ قال : قد والله يا ابن أخت قسمت لك أفضل من ذلك
وأجزله . قال : ما هو ؟ قال : شعري ورثتيه . فمن أين جئت بهذا الشعر ؟
لملك ترى أنك جئت به من مزينة ، وقد علمت العرب أن حصاتها وعيين
مائها في الشعر هذا الحي من غطفان . (١٤) والحدث في هذه الرواية — إن

١١ — الأغاني : ٢٠٩/١٠ . وشوقي ضيف : العصر الجاهلي (ط . دار المعارف ، الطبعة
السابعة) / ٣٠٠ .

١٢ — وكان أبو سلمى تزوج إلى رجل من بني سهم بن مرة، أو فهر بن مرة، يقال له الغدير .
انظر شرح ديوان زهير / ٥٥ والأغاني ٢٩٠/١٠ .

١٣ — جاء في شرح ديوان زهير ص ٢٢٥ أن بشامة عم لأمّ زهير، لكن صاحب الأغاني يذكّر في
ج ٢١٢/١٠ أنه خال زهير. أما ابن سلام فقد نص في طبقات فحول الشعراء / ٥٦٤ على
أن زهير ابن أخته .

١٤ — الأغاني ٢١٢/١٠ وشرح ديوان زهير ٢٢٥ .

كان صحيحا — يدلّ على تأثير بشامة في زهير، وعلى أن زهيراً كان شاعراً
معجبا به، مما دعا بشامة الى الاعتزاز بأنه امتداده الفني .

ويظهر أن والدته زهير تزوجت بعد وفاة أبيه ؛ فقد ورد في الاخبار
أن أوس بن حجر كان فحل مضر في الشعر، حتى نشأ النابغة وزهير
فاخملاه ، وكان زهير راويته، وكان أوس زوج أم زهير (١٥) .

لم يترك زهير الحاجر في نجد ، أرض أخواله بعد موت والده، بل ظل
فيها هو وأهل بيته الذين لا تعرف منهم سوى أخيه، وكان يدعى أوسا ، وهو
أخوه من أمه الغطفانية (١٦) . وأخته الخنساء التي عاشت الى ما بعد
موته، حيث نظمت فيه مراثية حزينة معبرة (١٧) .

أما زهير فقد تزوج الى أخواله ؛ تزوج كبشة بنت عمار بن عدي
ابن سحيم، أحد بني عبد الله ابن غطفان، فهي أم ولده (١٨) ؛ ويبدو أنها
كانت الزوجة الثانية بعد (أم أوفى) زوجته الأولى التي أحبها كثيرا ، لكن
الذي دفعه الى زواج كبشة عقم أم أوفى (١٩) أو أنها ولدت لـه
ومات أولادها جميعا (٢٠) .

لم يرح هذا الزواج أم أوفى فدبت فيها الغيرة وأذنت زهيراً كثيراً، مما
اضطره الى طلاقها وهو كاره، ثم ندم على ذلك وقال (٢١) :

١٥ — طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

١٦ — شرح ديوان زهير / ٥٥ .

١٧ — المصدر السابق / ٣٦٦ .

١٨ — المصدر نفسه ٣٢٦ ، ٣٢٥ .

١٩ — الموجز في الأدب العربي وتاريخه (وضع لجنة من الاساتذة بالاقطار العربية ، دار
المعارف ببلنن ١٩٦٢) ١ / ١٧٩ .

٢٠ — الاغانى ٣١٢/١ والخبر منقول عن ابن الاعرابي .

٢١ — شرح ديوان زهير / ٣٤٢ .

لَعَمْرُكَ وَالْخُطُوبُ مُغَيَّرَاتٌ وفي طول المعاشرة التَّقَالِي

لَقَدْ بَالَيْتُ مَطْعَنَ أُمِّ أَوْفَى وَلَكِنْ أُمُّ أَوْفَى مَا تُبَالِي

ومن الطبيعي أن يؤثر استمرار هذا الحب لأم أوفى على علاقته بكبشة، زوجته الجديدة . لقد واجهته باحساس المرأة : برمت كثيرا بفتور مشاعره نحوها فعاتبته عتاباً مرّاً، ذكرته فيه بواجب الزوج تجاه امراته التي تخلص لبيتها وتقوم بواجبها . أمّا وزوجة ؛ وهذا واضح في أبياته التالية (٢٢) :

وَقَالَتْ أُمُّ كَعْبٍ لَا تَزُرُنَا فَلَا وَاللَّهِ مَا لَكَ مِنْ مَزَارٍ

رَأَيْتُكَ عِبْتَنِي وَصَدَدْتَ عَنِّي فَكَيْفَ رَأَيْتَ عِرْضِي وَاصْطَبَارِي

فَلَمْ أَفْسِدْ بَنِيكَ وَلَمْ أَقْرَبْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَمَاتِ الْكِبَارِ

ويدافع عن نفسه بجواب مقتضب حمله بيته :

اقِيمِي أُمُّ كَعْبٍ وَاسْتَقَرِّي فَإِنَّكَ مَا نَزَلْتِ بِهَا بِدَارِي

لقد اكد لها أن الذي يحكم معاملته لها هو شعور الزوج الذي يستشعر مسؤوليته بضرورة العمل على توفير الأمان لزوجته ما دامت في داره تقوم بمهامها جيداً .

أما مسألة الحب فليس لها أن تكلفه بها ، ذلك لأن الحب لا يفرض على الإنسان فرضاً . ولعل موقف زهير هذا يعكس لنا مفهوم الناس في عصره للزواج والحب على حد سواء ؛ فليس الزواج لتحقيق عاطفة الحب دائماً، وإنما الزواج في كثير من حالاته للانجاب والعناية بشؤون الحياة العائلية والمنزلية فحسب .

وعلى أية حال فقد أنجبت له كبشة هذه ثلاثة أبناء ذكورا، هم: كعب

وبجير وسالم (٢٣) أما سالم فمات في حادث شؤم ينقله الرواة على النحو التالي : كان سالم هذا جميل الوجه حسن الشعر، فأهدى اليه رجل بُردين، فلبسهما وركب فرسا خيارا، فمَرَّ بامرأة من العرب في مكان ماء يقال له النّاءة، فقالت : ما رأيت كاليوم قط رجلا ولا بردين ولا فرسا أحسن مما أرى ، فما مضى قليلا حتى عثر به الفرس، فاندقت عنقه، وانشق بُرداه، وكُسرت عنق فرسه ؛ فقال زهير يرثيه ويشير الى الحادثة :

رأى رجلاً لاقى من العيش غبطةً واخطأه فيها الأمور العظائمُ
وشبَّ له فيها بُنُونٌ وتويعتْ سلامةُ أعوامٍ له وغنائيمُ
وعندي من الأيام ما ليس عنده فقلتُ لها مهلاً فإنكِ حالمُ
لعلك يوماً أن تُراعي بفاجعٍ كما راعني يوم النّاءة سالمُ (٢٤)

إن في الأبيات تذكيراً بأن السرور لا يدوم ، وبأن على الإنسان دائماً أن يتهيأ لاستقبال الفواجع لأن الدنيا في قلب مستمر . ونحن على أية حال لا ندري مدى الصدق في قصة مقتل سالم، لكن الثابت لدينا أن زهيراً فجع بابنه هذا فجعة عظيمة جعلته يقف في الأبيات السابقة عند حالين متناقضين : حال من مُدَّت له الدنيا حبل السلامة والغنى ، وحال من بُلَّتْه بالمصائب ونجمته بأبنائه . فالشعور بالأسى العميق كان حتما وراء إبراز تناقض الدنيا السحيق .

أما ولداه كعب وبجير فلحقا الإسلام واسلما * أسلم بجير أولا وتمنّع كعب، بل قال أبياتا يؤنب فيها بجيرا على اسلامه، ويعرّض بالاسلام والرسول . قال (٢٥) :

٢٢ - العباسي : معاهد التنصيص (المطبعة البهية ١٣١٦ هـ) ١١٠/٢

٢٤ - الألفي : ٢١٣/١٠ وما بعدها ثم شرح ديوان زهير / ٢٤١

٢٥ - شرح ديوان كعب بن زهير / ٢ وما بعدها و (وَئِب) كَوَيْل ، تقول وَئَيْكَ وَئَيْبُكَ .

الْأَبْلَغُ عَنِّي بُجَيْرًا رَسَالَةً فَنَهْلُ لَكَ فِيمَا قُلْتُ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ
سُقِيتَ بِكَاسٍ عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ
وَخَالَفَتْ أَسْبَابَ الْهُدَى وَتَبَعَتْهُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ وَيَبَّ غَيْرَكَ دَلَّكَ

فبلغ رسول الله شعره هذا فتوعده ونذر دمه، فكتب إليه أخوه بجير يحذره ويدعوه إلى القدوم على الرسول وإعلان التوبة والإسلام . وطمانه بأن محمداً عليه السلام لا يقتل أحداً جاءه تائباً . ففعل ذلك كعقب وقال قصيدة جلييلة ألحها بين يدي الرسول الكريم ، فقبل توبته وعفا عنه، وكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم .

هذا وتذكر بعض المصادر أن إسلام كعب قد أعلن بعد بعثة الرسول مباشرة، وذلك تحقيقاً لوصية والده قبل وفاته، وهي تورد على هذا روايتين :

أحدهما أن زهيراً رأى في منامه وفي أواخر عمره ، أن أتيا إياه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسكها بيده، ثم تركه فهوى إلى الأرض . فلما حضره الموت قصّ رؤياه على ولده كعب ثم قال : إني لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدي ، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه . ثم توفي قبل المبعث بسنة ؛ فلما بعث رسول الله خرج إليه ولده كعب بقصيدته (بانت سعاد) وأسلم (٢٦) . وثانيتهما أن زهيراً رأى في منامه أن سببا تدلى من السماء إلى الأرض وكان الناس يمسكونه ، وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه؛ فأوله نبي آخر الزمان ، فأنه واسطة بين الله والناس ، وأن مدته لا تصل إلى زمن مبعثه ، فأوصى بنيه أن يؤمنوا به (٢٧) . واعتقد أن هاتين الروايتين موضوعتان، وأن الخبر الأول المشفوع بأبيات شعرية لبجير هو أقرب إلى التصديق منهما . والذي يدفعني لهذا الاعتقاد ، الافتعال الواضح للرؤية

٢٦ - خزنة الأدب ٢ / ٣٣٥ .

٢٧ - المصدر السابق ٢ / ٣٣٦ .

من أجل التدليل على تنبؤ بعض الناس بالنبوة قبل وقوعها • ولربما استفاد واضعها من التقوى التي عرف بها زهير في الجاهلية كما سيأتي .

ومن أخبار زهير أيضا أن كانت له ابنة اسمها (وبرة) وأنها كانت شاعرة؛ فعندما قال زهير :

أَرَادَتْ جَوَازًا بِالرُّسْتَيْسِ فَصَدَّهَا رَجُلًا مُعَوِّدٌ فِي الدُّجَى بِالْمَعَابِلِ
كَأَنَّ مُدْهَدَى حَنْظَلٍ حَيْثُ سَوَّفَتْ بِأَعْطَانِهَا مِنْ جَرِّهَا بِالْجَحَافِلِ

فقال زهير من يجيز هذا ؟ فقالت وبرة : يا ابتاه أنا أجيزه، وأنشدت :
جَدُودٌ فَلَّتْ بِالصَّيْفِ عَنْهَا جِحَاشُهَا فَقَدْ غَرَزَتْ أَطْبَاقُهَا كَالْمَكَاكِيلِ (٢٨)

- ٢ -

ترسم لنا الأخبار وشعر الشاعر صورة جميلة لزهير ؛ فهو من النفر الذين كانوا يحاسبون أنفسهم كثيرا ليقتربوا من الخير، ويتعدوا عن الشر؛ ولهذا استقام خلقه ، وباعد بينه وبين الموبقات، كالخمر والميسر والأزلام (٢٩) .

لقد تساوت نفسه وابتعدت عن تدني المجتمع الجاهلي وتساقطه في الحضيض ؛ وبذلك اقترب من الايمان • وفي شعره أبيات تشير الى انه كان قريبا من الايمان حقا فهو — مثلا — يؤمن بأن هناك إلهها يتدبر الكون ويحاسب على الأعمال قال (٣٠) :

وَالْمَالُ مَا خَوَّلَ الْإِلَهَ فَلَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَحُوزَهُ قَدَرُ
وَالْإِثْمُ مِنْ شَرٍّ مَا يُصَالُ بِهِ وَالْبِرُّ كَالْغَيْثِ نُبْتُهِ أَمْرُ

٢٨ — شرح ديوان زهير / ٢٤٥ .

٢٩ — جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة ببغداد ١٩٧٦) ٦٧١/٤ .

٣٠ — شرح ديوان زهير / ٢١٤ .

وهو — كما يبدو في شعره ايضا — يؤمن بالحساب والعقاب ، وبأن
أعمال الإنسان مرصودة ومحفوظة بكتاب مدخور (٣١) :

يُؤْخَرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُنْخَرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمَ

لقد كان ذا خلق جميل، مشدود برباط الايمان دائما؛ ذلك لانه يرى ان
الانسان قادر على اكتساب خلق حميد اذا ما سعى للتعلق بالخير الذي
يريده الاله ان يعم الكون والناس (٣٢) :

عَوَّذْتَ قَوْمَكَ : إِنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ مَعَهُمَا يُعَوِّدُ شِمَةَ يَتَعَوِّدُ
كَرْهًا وَبِرًّا لِلَّهِ وَشِمَةَ تَغْفُو عَلَى خُلُقِ الْمُسِيءِ الْمُسِيءِ

وقد بلغ من ايمانه انه خشي عقوبة الله لانه هجا بني عليم بن خباب
بدون حق، وكان يقول : « ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصينني الله
بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم (٣٣) » . ولقد اعتقد بعض الباحثين انه كان
خاضعا لتأثير النصرانية، كما عده بعضهم نصرانيا؛ لكن يبدو ان الرأي الذي ذهب
اليه بروكلمان صواب ، فهو يعتقد بأن تأثير النصرانية كان واقعا في الجزيرة
العربية، لكننا لا يجوز لهذا ان نعد زهرا من النصارى * (٣٤). وكان عادلا
يحب العدل ، ويدعو دائما الى اعادة الامور لنصاب الحق، ولهذا بارك عمل
كل من هرم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين تحملا ديات القتلى ، واصلحا
بين الحيين المتخاصمين : عبس وذبيان، بعد حرب دامت اربعين عاما .

يَمِينًا لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُهْرَمٍ

٣١ — المصدر السابق / ١٨ .

٣٢ — المصدر نفسه / ٢٧٧ .

٣٣ — الأملاني ١٠ / ٢٠٩ وشرح ديوان زهير / ٥٦ .

٣٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (ط . دار المعارف بمصر د . ت) ١ / ٩٥ .

تَدَارَكْتُمَا عِبْسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَ مَا تَقَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ (٣٥)

ورايه في تلك الديات انها اخذت بغير حق لان الذي تحمّل دفعها لا ذنب له سوى حبه ان يسود الصفاء بدل الشر :

لَعَمْرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ دَمَ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلِ الْمَثَلِمْ

فَكَلَّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُ عُلاَلَةُ أَلْفٍ بَعْدَ أَلْفٍ مَصْتَمِ

تَسَاقُ إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ صَحِيحَاتُ مَالٍ طَالَعَاتٍ لِحُزْمٍ (٣٦)

إنه يستغل هذه الحادثة غير المنطقية لحث المجتمع على رؤية الخطأ في نظامه الاجتماعي؛ فلو كان العدل هو الذي يسيّره لما احتاج الى ان يقبل هذا الامر الغريب .

إن مطلب العدالة ربما نما مع الشاعر، خاصة وان اخواله كانوا قد ظلموا والده ظلما دفعه الى تصرفات حادة جدا، كما مر بنا سابقا . وانني اعتقد ان حادثة والده التي كانت السبب المباشر في توطئه بأرض اخواله الى الابد ، كانت مؤثرة جدا في نفسية زهير وفكره وسلوكه ، ولهذا أصبح السلام والعدالة مطلبه الاساسي في الحياة والوجود الانساني كله .

ولهذا كان اليفا جدا لمن عرفهم واختلط بهم، مهما كانت مستوياتهم الاجتماعية ، وعلى اية صفة كانت علاقتهم به . والمثل الرائع الذي يستأهل التوقف هنا قصته مع راعيه (يسار) : كان الحارث ابن ورقاء الصيداوي، من بني اسد، أغار على بني عبد الله بن غطفان، فغنم فاستاق ابل زهير وراعيه يسارا (٣٧) مما دفع زهيراً أن يجاهد طويلا لاسترداد راعيه، حيث

٣٥ - شرح ديوان زهير / ١٤ ومنشم امرأة تبيع العطور وقيل : من التمشيم في الشر .

٣٦ - المصدر السابق / ٢٥ وما بعدها . العلالة : الزيادة هنا . مصتم : تام . المخزرم : التنية في الجبل .

٣٧ - الاغني ١٠ / ٢٠٧ - ٢٠٩ .

قال قصيدة يهجو بها الحارث بن ورقاء وقومه، ويهدده بغيرها ان لم يعد يسارا سالماء، ومطلع القصيدة (٣٨) :

تَعْلَمُ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَاسِيٌّ يَنَادِي فِي شِعَارِهِمْ يَسَارُ

ويبدو أن الحارث قد تأثر بأقوال زهير فعزم على إعادة يسار ، لكن قومه نهوه وحالوا بينه وبين رغبته، فبعث زهير فيهم قصيدة يهجوهم ويمدح الحارث ويشجعه، ويهيب به أن لا يستمع اليهم . ويبدو أنه نجح في ذلك كما يقول (٣٩) :

أَبْلَغُ لَدَيْكَ بَنِي الصِّدَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ يَسَارًا أَتَانَا غَيْرَ مَغْلُولٍ
وَلَا مَهَانَ وَلَكِنْ عِنْدَ ذِي كَرَمٍ وَفِي حِبَالٍ وَفِي الْعَهْدِ مَأْمُولٍ

من الملاحظ في هذه القصائد أن زهيراً لم ينشد استرداد شيء من أمواله ، لكنه كان شديد الحرص على أن يعود اليه (يسار) فقط ؛ وهذا يدل على اللفة المتأصلة في طبع هذا الرجل، وعلى الوفاء الذي فطر عليه أيضاً . فيسار مجرد راع بسيط، لكن اختلاطه بزهير ولد في ذات الشاعر مشاعر جميلة خاصة ومالاً بدافع منها حتى يسترد راعيه المخلص .

هذا وفضلاً عن وفائه السابق الذكر لهرم، مدحه لأهله (٤٠) تحقيقاً لهذا الوفاء ، عرف عنه شدة وفائه لزوجته (أم أوفى) ؛ فلقد ظل يذكرها بأحسن ما تذكر به أنثى بالرغم من نشوزها وانفصالها عنه ؛ وقد أدى به هذا الوفاء الى مواقف صعبة مع زوجته الجديدة ، لكنه في علاقته بهذه المرأة الجديدة أثبت أيضاً أنه رجل طبع على اللفة وحسن المعشر، فحين عاتبته

٢٨ - شرح ديوان زهير / ٢٠٠ .

٢٩ - المصدر السابق / ٢٠٨ .

٤٠ - انظر محبته لسنان والد زهير في ديوانه / ١٩٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ورواها اباه / ٣٣٤ .

على استمرار تعلقه بأم أوفى — زوجته القديمة — لم ينكر ذلك، بسـل ذهب في صراحته الى حد أن عرفها موقعها منه، فهي ليست أكثر من امرأة تزوجها للانجاب ، وهو معها يقوم بواجبات الزوج على أكمل وجه، كما مرّ بنا سابقا .

وكان زهير متعففا، يترفع عن الماديات في علاقاته دائما ؛ لقد ظهر ذلك جلياً في تعامله مع ممدوحيه، وخاصة هرما ؛ فلقد أكثر زهير من مدحه حتى حلف هرم ألا يمدحه زهير إلا إعطاه، ولا يسأله إلا إعطاه، ولا يسلم عليه إلا إعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا ؛ فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، وكان اذا مر به في ملاقال : « عموا صباحا غير هرم وخيركم استتيت (٤١) » .

والى جانب هذا كان زهير سيدا كثير المال ؛ فقد اغناه هرم ثم آل اليه نصيب من مال خاله بشامة بن الغدير، كما يذكر صاحب الاغانى (٤٢) ؛ وكان كريما يصرف ماله فيما يراه واجبا . روي ان زيد الخيل بن المهلهل الطائي تمكن من بجير فأخذه وهو لا يعرفه، ولما عرف انه ابن زهير حملـه على ناقته وخلق سبيله، فأتى بجير أباه فأخبره خبر زيد وما فعله ، فأرسل زهير بفرس كميـت كان لكعب من كرام الخيل الى زيد ، وكان كعب غائبا فلما جاء انكر على والده ذلك وقال : كأنك أردت ان تقوي زيدا على قتال غطفان، فقال زهير : هذه إبلي فخذ ثمن فرسك وازدد عليه ؛ وقد عنفت كعبا زوجته فقالت : أما استحييت من أبيك في سنه وشرفه ان ترد هبته ؟ وقد اثر هذا الموقف في زيد الخيل فقال :

فلولا زهير أن أكدر نعمة لقارعت كعباً ما بقيت وما بقى (٤٣)

٤١ — معاهد التصيص ١١٠/٢ .

٤٢ — الاغانى ٣١٢/١٠ .

٤٣ — أبو علي القالي : نيل الامالي (طبعة مصطفى اسماعيل يوسف بن دياب ، الطبعة الثالثة) / ٥٣ وما بعدها . وشرح ديوان كعب بن زهير / ١٢٦ وما بعدها .

ويقال ان زهيراً مات قبل البعثة بقليل. ويحدد بعضهم وفاته فيجعلها قبل البعثة بسنة واحدة (٤٤) ، أما بروكلمان فيقول : ان « الراجح انه مات قبل ظهور النبي بزمان طويل (٤٥) » وهناك رواية تجعل وفاته بعد البعثة وتزعم ان الرسول عليه السلام مرّ به وهو شيخ فقال : اللهم اعطني من شيطانه (٤٦) ؛ وهي رواية مشكوك فيها على أية حال . هذا وقد رثته اخته الخنساء بأبيات جيدة تقول فيها (٤٧) :

فلا يغني توقي المرء شيئاً ولا عتد التميم ولا الغضار
إذا لاقى منيته فأمسى يساق به وقد حُقّ الحذارُ
ولاقاه من الأيام يوماً كما من قبل لم يخلدُ قدارُ
وهكذا انتهت حياة شاعر عاش للخير، واتخذ من شعره أداة لنشره
وتمكنه في مجتمع كثر فيه الجهل والظلم والشر .

- ٣ -

لزهير ديوان شعر طبع عدة طبعات (٤٨) ، ولعل أجودها طبعة دار الكتب التي اعتمدت على رواية ثعلب، وهي الطبعة التي اعتمدتها في دراستي

٤٤ - شرح ديوان زهير / ٥٦ وخزانة الادب ٢/ ٢٣٥ .

٤٥ - تاريخ الادب العربي ١/ ٩٥ وانظر ايضا تاريخ الادب العربي لتالينسكو (ط . دار المعارف بمصر / ٧٨ .

٤٦ - معاهد التنصيص ٢/ ١١٠ .

٤٧ - السيوطي : شرح شواهد المغني (دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٦) ١/ ١٣٤ ،
والنفساء : كان احدهم اذا خشي على نفسه علق عليه خرقة اخضر .

٤٨ - انظر مقدمة ديوان زهير / ٢٠ - ٤٤ . وكتاب احسان القص : زهير بن ابي سلمى

هذه .

على الرغم من ان قضية الحرب والسلم اخذت القسط الاكبر من اهتمام الشاعر، فنظم فيها شعراً كثيراً مُثِّلَتْ قصائده المدحية، إلا أن شعره يحوي ايضاً اغراضاً أخرى كالرثاء والغزل والهجاء والفخر والحكمة . هذا بالإضافة الى ان شعره يحوي عناصر مختلفة من معارف عصره ومعالمه ؛ فشعره مثلاً من أكثر الأشعار الجاهلية اهتماماً بالكتابة ، لقد كررها أكثر من مرة وبخاصة في مقدماته الطللية؛ مثال ذلك قوله (٤٩) :

لن الديار غشيتها بالفدند
كالوحي في حجر المسيل المخلد

وزهير في شعره يشغل بقضايا انسانية بالغة الدقة والخطورة في مجتمع جاهلي بدائي؛ كانت تسوده — الى حد كبير — شريعة باغية قاسية ؛ لذا احتاجت من الشاعر قدراً كبيراً من التجرد والتفكير لوضعها وضعاً مؤثراً . فالشاعر متألم جداً للأوضاع السيئة التي ينحدر اليها مجتمعه ؛ وقد تمثل تألمه هذا بصورة شعرية توحى بأن طريق الخلاص هي السير مع حس السلام الذي بدا يتخذ جانباً ايجابياً فاعلاً . ومع كل ما من شأنه ترسيخ قيم أو مثل عليا فوق الأرض . ومن هنا التقى كلام الشاعر نسي

... (دار الفكر بدمشق ١٩٧٢) ١١٩ وقد عثرت على نص في خزانة الادب ٢ / ٢٢٤ يشير

الى ديوان زهير وشروحه . قال البغدادي (وديوان شعر زهير كبير وعليه شرحان ، وهما عندي والحمد لله والله ، اهدهما بخط مهمل الشهر الخطاط صاحب الخط النسوب) ولم يذكر في مخطوطات الديوان المكتشفة ما يشير الى هذه النسخة .

٢٩ — شرح ديوان زهير / ٢٦٨ .

دعوته الإصلاحية مع الخلق الإسلامي الذي جاء بعيد موته . قيل : انشد
عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله في هرم :

اثني عليك بما علمت وما اسلفت في النجدات من ذكر
والستر دون الفاحشات ولا يلتصاك دون الخير من ستر

فقال عمر : ذلك رسول الله (٥٠) . وكلام عمر هذا هو من نوع كلامه
حين سأل بعض ولد هرم ان ينشده بعض مدح زهير في أبيه ، فلما انشده
ما طلب قال : إن كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن والله ان كنا لنحسن
له العطاء ، فقال : قد ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم (٥١) .

ومن هنا قال عبد الملك بن مروان : ما سر من مدح بما مدح زهير آل
أبي حارثة من قوله :

على مكثريهم رزق من يعترئهم وعند المقلين السماحة والبسذل
ألا يملك أمور الناس (٥٢) . يعني الخلافة) .

ان المعاني التي عاشت وقدرت هذا التقدير في العصور اللاحقة ، لمعان
انسانية كثيفة وان بدت بسيطة مكشوفة ؟ فلا عجب ان تلتقي بعض
معاني شعره مع بعض الآيات القرآنية الكريمة . لقد لاحظ بعضهم موضع
التقاء قوله :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـه ولو رام أسباب السماء بسلم
مع فحوى الآية الكريمة « اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج

٥٠ - الاغاني ١٠ / ٢٠٤ .

٥١ - المصدر السابق ١٠ / ٢٠٥ ويقال ان عمر قال ايضا (ولكن العلل التي كساها أبوك
هرما لم يبلها الدهر) .

٥٢ - المصدر نفسه ١٠ / ٢٠٦ .

مشيدة (٥٣) «والاحظ التقاء قوله :

فان الحق مقطعه ثلاثٌ ، يمينٌ او نفارٌ او جلاءٌ

فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء (٥٤)

بالبعد الاجتماعي والانساني الذي عليه القول الالهي : « ولكم في القصائص حياة » . ولربما كان هذا وراء قول ابن قتيبة : « وكان زهير يتاله ويتعنف في شعره ، ويدل شعره على ايمانه بالبعث » (٥٥) .

ويبدو ان اتجاهه الخلقي كان وراء تفضيل كثير من الناس له . لقد نُضِل على الشعراء لانه — كما قيل — : « كان ابعدهم من سخب ، واشدهم اجتنابا لحوشي الكلام (٥٦) » .

والواقع ان زهيراً كان شاعراً فذاً ، فلقد فهم بخبرته وذكائه قضايا الانسان والوجود ، وعبر عنها تعبيراً ادبياً اكسبها سمة البقاء ، وهذا ما جعله قائماً في عقول الناس على مر العصور .

وشاعريته اصيلة عريقة تمتد في جذورها وفروعها بشكل جعلها متميزة في تاريخ الشعر العربي القديم . قال ابن الاعرابي : « كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان ابوه شاعراً ، وهو شاعر ، وخاله شاعر ، واخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعران ، واخته الخنساء شاعرة (٥٧) » . وقد ذكر ايضا ان عقبة بن كعب بن زهير المعروف بالمضرب

٥٢ — ناهر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي (دار المعارف بصر ١٩٥٦) ٤٠٦ ، والاية في النساء / ٧٨ .

٥٤ — شرح ديوان زهير / ٧٥ . والاية من البقرة / ١٧٩ .

٥٥ — خزائن الانب ٢ / ٣٣٣ .

٥٦ — المزماني : الموشح (دار نهضة مصر ١٩٦٥) ٩٥ .

٥٧ — شرح شواهد المفني ١ / ١٣٣ ومعاهد التنصيص ٢ / ١١٠ .

كان شاعرا ، وانه كان لعقبة هذا ابن يقال له العوام، وكان شاعرا —
أيضا (٥٨) .

لقد اجتمعت لزهير عناصر وراثية في الشعر أعطته استعدادا فطريا
لقوله ؛ ويبدو انه أحسّ مثل هذا الاستعداد مبكرا ، فأخذ نفسه به وعوّل
على تأصيله وتهذيبه حتى غدا شاعرا مذكورا . لقد وضعه ابن سلام في
الطبقة الأولى، تاليا لامرئ القيس والنابغة (٥٩) .

أما أبو الفرج فقد ذكر ان الرواة لم يتفقوا على تفضيل أي من امرئ
القيس أو النابغة عليه ؛ قال : « هو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر
الشعراء ، وانما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه ؛ فأما الثلاثة فلا
اختلاف فيهم ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني (٦٠) » .

وفي التراث النقدي ما يؤيد قول أبي الفرج ؛ فقد جاء في طبقات ابن
سلام نفسه ان أهل النظر قالوا : « كان زهير أحصفهم شعرا . . . واجمعهم
لكثير من المعنى في قليل من المنطق (٦١) » .

وقد نسب صاحب خزانة الأدب الى ثعلب تقديم زهير ، كما أورد
محاورة بين جرير وابنه عكرمة مؤداهاء ان جريرا كان يقدّم زهيراً ويجعله
أشعر الجاهليين (٦٢) . ومن كان يقدّمه أيضا قدامة بن موسى الجمحي ،
الذي كان — كما يقول ابن سلام — من أهل العلم (٦٣) . وكان كل من عمر

٥٨ — الاغانى ٢١٤/١. وخزانة الادب ٢/٢٣٣ .

٥٩ — طبقات فحول الشعراء / ٩٢ .

٦٠ — الاغانى ٢٨٨/١ .

٦١ — طبقات فحول الشعراء / ٥٢ والثعالبي : خاص الخاص (دار مكتبة الحياة بيروت
١٩٦٦) ٩٦ .

٦٢ — خزانة الادب ٢/٢٣٣ .

٦٣ — الاغانى ٢٨٩/١ .

ابن الخطاب ومعاوية يسميه بشاعر الشعراء أو أشعر الشعراء (٦٤). وقد زعم حماد انه لم يدرك احدا من اهل العلم من قریش بفضل على زهير من الناس احدا في الشعراء لكنه يقول : غير ان قریشا قد اتفقوا على تفضيل زهير والنابغة معا (٦٥) . وكان ابو عمرو ابن العلاء يقول : « كان اوس فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه (٦٦) » . وسجل بعض النقاد القدامى احكاما نقدية توازن بين زهير وغيره على اساس الدوافع النفسية التي اشتهروا بها ، فقليل : « كان امرؤ القيس اشعر الناس اذا ركسب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب (٦٧) » .

والنقد الحديث لا يأخذ بهذه الآراء المطلقة لانه يدرك اختلاف الشعر والشعراء من حال الى حال ؛ فالمسألة كلها ترتبط بقضايا دقيقة في الشاعر ذاته ، وفي الموضوع الذي يتناوله ، والجو العام الذي يقال فيه الشعر . ولكن تظل الأقوال التي فاضلت بين زهير وغيره على اساس من الضوابط النفسية خاصة اقرب الى الاحتمال والتقبل من تلك التي اعتمدت التعميم اسلوبا في احكامها .

وعلى مستوى الصنعة الشعرية يصادفنا الرأي المنسوب الى عمر ابن الخطاب في تفضيل زهير حيث قال : « كان لا يعاظم في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ، ولم يمدح احدا الا بما فيه (٦٨) » . لقد اعجب به لان شعره مستو ، وفصيح اللفظ ، وناطق بالصدق الحقيقي عن مجريات الاحداث واوصاف الناس . ان هذا النقد — بالرغم من ان نظريات الشعر

٦٤ — شرح شواهد المغني ١ / ١٢١ .

٦٥ — شرح ديوان زهير / ٨٦ ، ٢٢٦ .

٦٦ — طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

٦٧ — العسكري : كتاب الصنائع (عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٢) ٢٣ .

٦٨ — الاغانى ١٠ / ٢٨٩ ومعاهد النصيب ١٠٩ / ٢ .

الحديثة قد تجاوزته بكثير — يظلّ نقدا يقدم اوليات اساسية في الحكمـ
النقدي المعلن .

وقد لاحظ الاقدمون تأثر زهير في الصنعة بطريقة اوس بن حجر —
وكان زهير راوية له — وهي قائمة على البروز الحسي، والاستقصاء للصور
وتفصيلاتها (٦٩) . وعرف عن زهير أنه صاحب مذهب التحريك الشعري
في العصر الجاهلي ، إذ به عُدَّ واحدا من الذين أطلق عليهم الاصمعي «عبيد
الشعر» . (٧٠) قيل إنه كان ينظم القصيدة في ليلة او شهر، ثم يتركها عنده
عاما كاملا لا يذيعها في الناس إلا بعد ان يعاود فيها النظر مرات عديدة .
ولهذا سميت قصائده بالحوليات او المقلدات والمنقحات (٧١) . وحتى نحكم
حكما مقنعا على عمل زهير هذا، لا بد لنا من الاجابة عن مسألة هامة في
المعرفة النقدية : هل الشعر ابن الملكة الشعرية وحدها، ام ابن الصنعة
الحاذقة فقط ، ام ابهما معا ؟

ان الاجابات العصرية لا تميل الى فصل الصنعة عن المؤهبة ، وهي
تعدهما اساسا متحدا لكل فن ناجح، وبهذا يكون زهير واحدا من الذين وعوا
باكرا دورهم الشعري الريادي، لذلك جاء شعره ناضجا متقنا ، ولقد لاقى
قدرا كبيرا من الاعجاب في عصره وبعد عصره . ان الاساس الفني لمذهبه
اهتمامه كثيرا بالصور الكثيفة التي قادت الى خلق الترابط العضوي في
القصيدة الواحدة، لأنها تشيع معاني عميقة شديدة التشابك والترابط .

٦٩ — شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ط . دار المعارف بمصر الطبعة
الرابعة / ٢٨) وما بعدها .

٧٠ — الشعر والشعراء ٢٢/١ .

٧١ — الجاحظ : البيان والتبيين (عبد السلام هارون ١٩٣٨) ٩/٢ ومعاهد التنصيص
١١١/٢ وخزانة الادب ٢/٢٣٥ . وابن جنس : الخصائص (ط . الهلال ١٩١٣)
٢٣٠/١ .

ان مثل هذه المعاني تؤدي بتفاعلها وتجاوبها وتجاوبها الى الكشف عن الرموز والايحاءات التي تؤلف الوحدة المعنوية الباطنية للقصيدة : فرصدنا لحركات النفس داخل القصيدة الواحدة يقودنا الى الوقوف على قضايا انسانية بعيدة بعدا جذريا عن الموضوعات الظاهرية التي نتحدث عنها .. وهذه هي القيمة المتوقعة لكل ترابط صوري كهذا الذي يشيعه زهير باتقان نادر .

بهذا تغدو الأقوال التي اتهمت معلقته كما اتهمت غيرها من المعلقات بالتفكك (٧٢) ، اقوالا قاصرة، عاجزة عن الرؤية الشمولية التي تعتمد اكتشاف الحقيقة من خلال حل العقد والتداخل الشعري العجيب .

ولكن الرواة والنقاد أخذوا على زهير عدة مأخذ في شعره، تنحصر في مجالات اللغة والسرقات والفن وغاياته بشكل عام :

ومن مأخذهم اللغوية استبشاعهم كلمة (حقلد) في بيته (٧٣) :

تَقِي نَقِيٍّ لَمْ يَكُنْ غَنِيمَةً بِنَهْكَ ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ

ومنها انكارهم عليه قوله (رك) في بيته :

ثُمَّ اسْتَمَرُوا وَقَالُوا إِنَّ مَوْعِدَكُمْ مَاءٌ بَشْرَقِيٍّ سَلْمَى فَيْدٌ أَوْ رَكَكُ

لأنه حكى بعض الأعراب أنه قال : إنما هو « رك » (٧٤) . ولست أرى وجها لهذه المأخذ . (حقلد) كلمة عربية مستعملة، قد تكون ثقيلة على اللسان، لكنها في موضعها في البيت أدت ما أراد الشاعر ؛ أما (رك) فنقلها

٧٢ - الموجز في الأدب وتاريخه ١/ ١٨٥ .

٧٣ - كتاب الصناعتين / ٢٠ والبيت في الديوان / ٢٣٤ والحقلد : الضيق البخل ، والسلي الخلق .

٧٤ - الموشح / ٦١ وحكى عن بعض الأعراب أنه قال : إنما هو (رك) والبيت في الديوان / ١٦٧ .

هو الذي دفع الشاعر الى فك ادغامها . والشاعر — على اية حال — اطمأن على وضع كل كلمة في موضعها من شعره ، لذا فان اي مأخذ لا يكون بافراد الكلمة ومحاسبتها على جمالها او قبحها منعزلة ، وانما في موضعها من القصيدة، وهذا مبدا غير الذي حوكم على اساسه زهير كما هو واضح .

واما في نحل الشعر فقد روي ان الاصمعي كان « يرى أن ابیاتاً من قصيدة زهير الميمية (امن ام اوفى . . .) ليست له، وانما هي لصرمة بن انس الانصاري (٧٥) » . واتهم ايضا بالاغارة على شعر غيره من الشعراء؛ فقد جاء على لسان ابي عبيدة قوله : كان قراد بن حنش من شعراء غطفان وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن ابي سلمى ادعى المقطوعة التي مطلعها :

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتَغِي غُطْفَانَ يَوْمَ اضْلَلْتُ (٧٦)

والمقطوعة في ديوان الشاعر ، وقد ذكر انها في رثاء سنان بن ابي خارجة، مع زيادة بيت على الأبيات التي رواها أبو عبيدة وهو :

وَمَلْعَنَ ذَاقَ الْهَوَانِ مَذْمُوعٍ رَاخِيَتْ عُقْدَةُ كِبْلِهِ فَاَنْحَلَّتْ (٧٧)

ومع تقديم وتأخير في الأبيات ، ثم مع اختلاف في رواية بعض الالفاظ والعبارات .

وهذا امر يرتد الى مسألة النحل والانتحال في الشعر الجاهلي . ومن الصعب ان يجزم الانسان فيها برأي وتظل خاضعة للفرض والتخمين . على ان مما يضعف احتمالات كون الأبيات لقراد ان أحدا لم يقل بذلك سوى

٧٥ — مصادر الشعر الجاهلي ٣٢٨ عن كتاب المعمرين / ٦٦ . وهناك قصيدة اخرى منسوبة للانصاري في ديوان زهير / ٢٨٤ .

٧٦ — المرزباتي / معجم الشعراء (عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠) ٢٠٥ .

٧٧ — شرح ديوان زهير / ٣٣٤ .

أبي عبيدة، وأن الأبيات في الديوان مزيدة ومختلفة بعض الاختلاف، ومقرونة عند زهير بمناسبة ؛ ولم ترد أية إشارة من ثعلب ، شارح الديوان ، تشير الى اتهامها على غير عادته .

أما في مجال السرقة الشعرية فيذكر الرواة أن زهير أخذ أبياتا ممن سبقه أو عاصره من الشعراء، من ذلك — مثلا — قول امرئ القيس (٧٨) :
فَلَأَيًّا بِلَأَيٍّ مَا حَمَلْنَا غَلَامَنَا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ مُحْنَبِّ
أخذه زهير فقال :

فَلَأَبًّا بِلَأَيٍّ مَا حَمَلْنَا غَلَامَنَا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُهُ
والمسألة هنا ترتبط بمفهوم السرقات الشعرية قديما وحديثا ، لأن هذا المفهوم ليس واحدا في العصرين؛ فبينما يعدّ النقد القديم التأثر والتأثير في الشعر سرقة معيبة، ينظر اليها النقد الحديث على أنها طبيعية، بل ربما كانت عامل اغناء كبير في الشعر ؛ لأن حصيلة هذا الفن تلاقح المشاعـر والمواقف والأفكار الإنسانية . وهو لا يفترض السرقة في الشعر أبدا ، لأنه يعتبر الشاعر مسؤولا عن كل حرف يستخدمه . وهو — على أية حال — لا ينظر الى الشعر نظرات جزئية تتوقف عند التقاء شاعرين عند كلمة أو جملة، لأن الشاعر الذي يصدر عن تجربة ذاتية حية لا بد أن يحدث شيئا ما فيما يتأثره، وذلك ليحوّله الى عالمه الخاص المفروض من المواقف الذاتية .
فزهير تصرف ببيت امرئ القيس تصرفا يبدو قليلا، لكنه اذا قرن الى السياق كله ونظر اليهما نظرة شاملة، أمكن ان يقال ان التجربة الكلية المتكاملة في القصيدة هي التي فرضت مثل هذا التصرف ؛ عندها يغدو الشعر كله ملك زهير، يحاسب عليه ويحاكم به .

٧٨ — انظر هذين البيتين وغيرهما من الأبيات مجموعة في شرح ديوان زهير ١٥ — ١٧ المقدمة.

واما في المجال الفني فقد أخذوا عليه اضافته (احمر) الى (عاد) في قوله :

فَتَنْتَجَ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كأحمرٍ عادٍ ثم تُرَضِّعُ فَتُقَطِّمِ
قائلين : (ان ثمود لا يقال لها عاد ، لان الله عز وجل انما نسب
تدارا الى ثمود) (٧٩) كما خطأوا قوله :

يُخْرِجُنَ مِنْ شَرَابٍ مَأْوَاهَا طَحْلٌ على الجذوعِ يَخْفَنُ الغِصْمُ والفرقا
قائلين : « ظن ان الضفادع يخرجن من الماء مخافة الفرق (٨٠) »
وهذا خلاف الواقع .

انهم — كما يبدو من نقدهم لشعره هنا — لا يفرقون كثيرا بين الصدق
الحقيقي والصدق الفني . فالشاعر — فنيا — لا يتقيد بسرد الواقع كما
كان وانما كما يمكن ان يكون من جهته ؛ ومن هنا لا يعيب زهير ان وضع
(عاد) بدلا من (ثمود) ، لأنهما في خياله ترمزان الى معنى ذهني واحد هو
الشر الرابض في الارض ؛ ومن هنا أصبحت الواحدة تعني الثانية عنده .
كما لا يعيبه أيضا ان خالف المفهوم السائد في تفسير خروج الضفادع
من الماء ، لانه وهو ينظم القصيدة التي منها البيت ، اراد هذا التفسير لحاجة
خاصة به . فالذي يجب ان يحاسب عليه الشاعر هو مدى ارتباط الجو
الذي يستحدثه بدوافعه ومواقفه ؛ اذ لا بأس حينئذ من تحويل الواقع او
استبداله بواقع جديد يخترعه خيال الشاعر وعواطفه . ان عدم وضوح
هذا المفهوم في اذهان كثير من النقاد الذين درسوا زهيراً هو الذي دفعهم
الى محاكمته على أساس محاكاة الواقع ، وبالمعنى الحرفي لهذه المحاكاة ،
فأخطأوا في احكامهم النقدية عليه .

٧٩ — طبقات فحول الشعراء / ٧٣ والموشح / ٥٦ .

٨٠ — كتاب الصناعتين / ٧٢ .

هذه صورة متكاملة لزهر الانسان وزهر الشاعر ، وهي صورة تحوي مضمونا واحدا هو « السمو » : فلقد كانت افكاره ومواقفه الاجتماعية تصدر عنه وتهدف الى انجازه على مستوى العصر كله؛ فبالسمو — كما عبر زهير في شعره مرارا — يعرف الانسان موقعه من الحرب والسلام ، وبه ايضا يدرك ابعاد ايجابيته في تفاعله مع غيره ممن يؤلفون معه وحدة اسمها المجتمع المتكامل . وكان ايضا يطبق السمو في خلقه . ^{٨١} يروى انه كان يقول : ما انا بأشعر من النابغة . (٨١) ويروى ايضا انه كان محبوبا ومحترما ممن عرفه (٨٢) . كما كانت مناهجه في الابداع الفني تتصف بالسمو ايضا ، فاذا وعينا ان السمو الفني يعني النتيجة التي يتوصل اليها شاعر يجتهد في تعمق تجربته واتقان وسائل فنه حتى تخرج حين تخرج ، وهي صاعدة الى قمم الابداع ومتجاوزة كل ما قد يسماها بالابتذال والسوقية ، أدركنا كم كان حظ زهير من السمو الفني عظيما .

ان احساسه بصفة السمو في شعره فكرا وفنا هو الذي دفعني لاطلاق لقب (شاعر السمو) عليه ؟ فزهير شاعر متميز باخلاصه لعصره واخلاصه لشعره ، لذا فهو ما زال بحاجة منا الى دراسة جديدة واعية هادفة تستقصي شعره وتستخرج منه كنوزه الثمينة .

د. عبد القادر الرباعي

٨١ — شرح ديوان زهير / ٢٢٦

٨٢ — خزائن الادب / ١٥٠ و ذيل الامالي / ٢٣ و ديوان كعب بن زهير / ٢٦